المملكة العربية السعودية
وزارة الشؤون الإسلامية
والأوقاف والدعوة والإرشاد

التفسير الميسر للقرآن الكريم

إعداد

د. حسن محمد باجودة

أستاذ الدراسات القرآنية البيانية
جامعة أم القرى بمكة المكرمة

الطبعة الأولى
١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

الجزء الثالث والعشرون

منشورات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد
الأمانة العامة لمسابقة القرآن الكريم

التفسير البسيط للقرآن الكريم

بقلم

د. حسن محمد باجودة

أستاذ الدراسات القرآنية البيانية

جامعة أم القرى بمكة المكرمة

الطبعة الأولى عام ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

ح وزارة الشئون الاسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ١٤٢٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنيّة أثناء النّشر

باجودة ،حسن محمد

التفسير البسيط للقران الكريم الجزء الثالث والعشرون/ حسن محمد باجودة

الرياض،١٤٢٦هـ

ص، سم

ردمك : ٥-٩-٥٠-٢٩-٩٩٩٩

١ ـ القرآن ـ التفسير الحديث أ ـ العنوان

ديوي ٦ ,٢٢٧ ١٤٢٦/٤٩٤٤

رقم الإيداع : ١٤٢٦/٤٩٤٤

ردمك : ٥-٩-٥٠-٢٩-٩٩٩

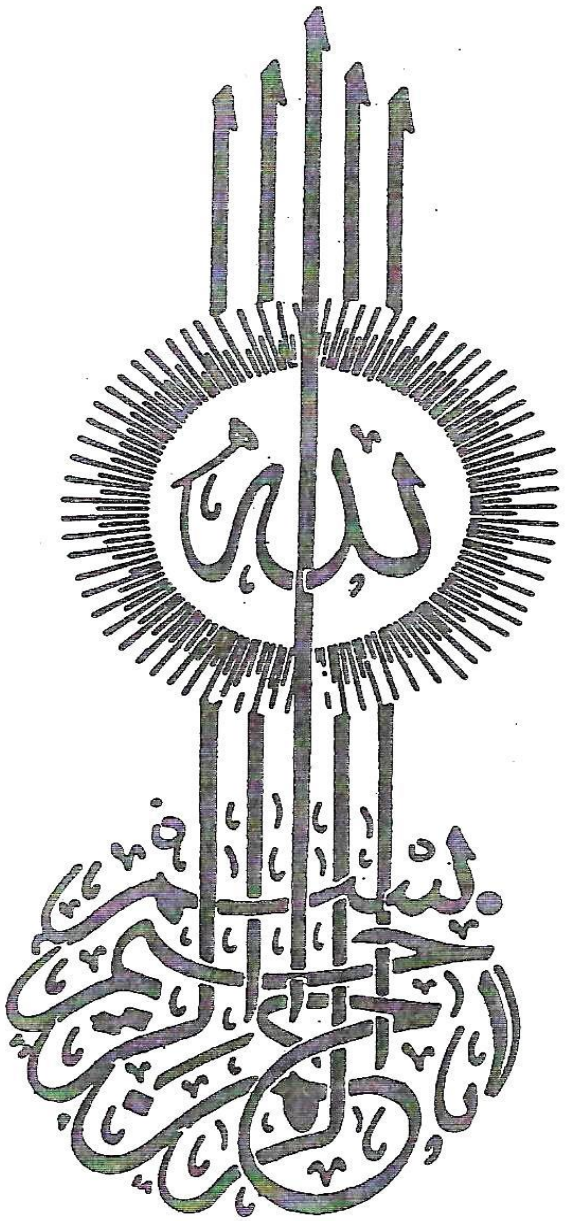

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد.

فهذا تفسيرٌ مبسّطٌ للجزء الثالث والعشرين من القرآن الكريم، يغطّي تمام سورة يس، وسورة الصافات، وسورة ص، وبعضاً من سورة الزُّمر. وقد قمت بعمله على غرار تفسير الأجزاء الاثنين والعشرين السّابقة. إنّ هذا الجزء الثّالث والعشرين، هو ميدان التفسير للمتسابقين في الحقل الأوّل، الّذي يشمل حفظ القرآن الكريم كاملاً مع التّفسير، من بين حقول التّنافس الخمسة في المسابقة السنوية الدَّوْليّة، السادسة والعشرين، لحفظ القرآن الكريم وتجويده وتفسيره، التي عقدتها وزارة الشّئون الإسلاميّة والأوقاف والدعوة والإرشاد، برئاسة معالي وزيرها الشيخ صالح بن عبدالعزيز بن محمّد آل الشيخ في أثناء الفترة من ١١/٨/١٤٢٥هـ حتّى ١٨/٨/١٤٢٥هـ الموافق ٢٥/٩/٢٠٠٤م حتّى ٢/١٠/٢٠٠٤م وكأنّ هذا التّفسير تتويجٌ للأعمال التي تمت في مجال التفسير، في أثناء المسابقة . علماً بأن ميدان المتسابقين في المسابقة القادمة، ان شاء الله تعالى، هو الجزء الرابع والعشرون من القرآن الكريم.

وأنتهز هذه المناسبة المباركة، كي أوجّه خالص شكري وتقديري لوزارة الشّئون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد، وعلى رأسها معالي الوزير، على الفرصة التي منحتني إيّاها، بأن أقوم بعمل هذا التّفسير، الذي حرصت فيه، كما حرصت في سابقيه، على أمور، أهمّها ثلاثة:

١ـ أن أبيّن مظاهر التّرابط بين الآيات الكريمات والموضوعات.

٢ـ أن أشير الى الدّروس التي يمكن أن تستفاد.

٣ـ أن أنسب الأقوال كلّها الى مصادرها.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يجعل هـذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، إنّه سميعٌ مجيب.

﴿ربّنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا. ربّنا ولاتَحْمِل علينا إصراً كما حَمَلْته على الّذين مِن قبلنا. ربّنا ولاتحمّلنا مالاطاقة لنا به. واعفُ عنّا واغفر لنا وارحمنا. أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾.

﴿سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون. وسلامٌ على المرسلين. والحمد لله ربّ العالمين﴾.

وصلّى الله وسلّم على سيدّنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله ربّ العالمين.

مكة المكرّمة
صبيحة يوم السبت ٢٩/ ١٠/ ١٤٢٠هـ
الموافق ٥/ ٢/ ٢٠٠٠م

كتبه الفقير الى عفو ربّه
د. حسن محمّد باجودة
أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة
جامعة أم القرى بمكّة المكرّمة

أولاً

تمام سورة يس

۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا
كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ
﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ
أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ
﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا
فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ
وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ
وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى
خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ
وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ
فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ
ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ
عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ
ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا
لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ
وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا
قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾
وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ
﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ
﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ
﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾
وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ
﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ
وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً
وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ
نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ
فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم
مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ
أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا
تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ
هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ
أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ
﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ
عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟
يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟
ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ
عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ
﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾
وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ
﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا
مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾
وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟
مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ
نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ
إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا
خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا
مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾
قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ
﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم
مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾
إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾
فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

بين يدي التفسير

(١)

« هوان الكافرين على الله تعالى وعذابهم في الأولى والآخرة»

الآيات (٢٨ ـ ٣٢)

تحدّثت السّورة الكريمة في قسمها الأوّل عن الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، والقرآن الحكيم، وعن الكافرين وهم كثرة، وعن المؤمنين وهم قلّة في تلك الفترة المكيّة المبكّرة من تاريخ الدّعوة الإسلاميّة، وعن البعث بعد الموت، وهو المحور الّذى تدور حوله السّورة الكريمة. وفي القسم التّالى ضربت السّورة الكريمة لكفّار مكّة المثل بالقرية الظّالم أهلُها الّذين كذّبوا رسل الله تعالى الثّلاثة إليهم وقتلوا الرّجل المؤمن الّذى أخلص لقومه النّصيحة في الأولى والآخرة، فغفر الله تعالى ذنبه وأكرمه بدخول الجنّة.

ويبدأ الجزء الثّالث والعشرون بالحديث عن عذاب الله تعالى العاجل لكافري القرية الّذين قتلوا الدّاعية إلى الله تعالى المؤمن. يقرّر السّياق أنّ الحقّ جلّ وعلا ما أنزل على قوم حبيب النّجار ملائكةً من السّماء لإهلاك القوم وما كان الحقّ جلّ وعلا منزلاً ملائكةً لهذه الغاية. ما كانت العقوبة إلاّ صيحةً واحدةً من جبريل عليه السّلام فإذا هم ميّتون كالنّار الّتى خمدت بعد اشتعال. إنّ حال هؤلاء الكافرين الّذين زاد الله تعالى بصائرهم عمىً إلى عماها تستحقّ أن يتحسّر عليها العباد الّذين نوّر الله تعالى بصائرهم، وأن ينادوا الحسرة: هذا أوانك فاحضري، فليس وراء عمى قلوب القوم وبصائرهم عمى. إنّ القوم الّذين تلك صفاتهم من كفّار تلك القرية وكفّار مكة وأمثالهم ما يأتيهم من رسولٍ إلاّ كانوا به يستهزئون. ألم يروا بأم أعينهم كم أهلك الله تعالى قبلهم من الأمم الّتى يمرون عليها مصبحين وبالّليل أنّهم إليهم لا يرجعون في هذه الحياة الدّنيا. وما كلّ تلك الأمم الّتى أهلكها الله تعالى إلاّ مجموعون لدى الله تعالى يوم القيامة ومحضرون للحساب

والجزاء والثّواب أو العقاب.

إنّ على كفّار مكّة أن يتّعظوا بما حلّ بالكافرين السّابقين وإلاّ كان المصير واحداً، فإنّ سنّة الله تعالى لا تتبدّل ولا تتخلّف.

وإذا كانت السّورة الكريمة بقصد حمل كفّار مكّة على أن يتدبّروا الأمر قبل فوات الأوان قد ضربت المثل بالقرية المشابهة لقريتهم والّتى أهلكها الله تعالى بصيحة لواحدٍ من جنده عزّ وجلّ، هو جبريل عليه السّلام، فإنّ للسّورة الكريمة وسيلةً أخرى من أجل الوصول إلى هذا الهدف الجليل، وهذه الوسيلة هي لفت انتباه الكافرين إلى عددٍ من آيات الله تعالى الدّالّة على قدرته المطلقة جلّ وعلا.

(٢)

«آيات المكان والزّمان والحمل فوق الماء»

الآيات (٣٣ ـ ٤٤)

يتألّف كلٌّ من آيات المكان والزّمان والحمل فوق الماء من أربع آيات كريمات بالتّمام والكمال، ترضى كلّ عقلٍ بجليل معناها، وتسعد كلّ نفس، وتطرب كلّ أذن، بجميل مبناها. وكان الابتداء بآية المكان لعَلاقة الإنسان الأسبق والأوثق بالأرض أو بالمكان، يلى ذلك وعي الإنسان بالزّمان. إنّ من آيات الله تعالى الدّالّة على القدرة المطلقة للذّات العليّة الأرض الميتة الّتى أحياها الله تعالى فأخرج منها حبّاً يأكل النّاس منه. ويلاحظ أنّ الحديث عن الأرض ينطلق من إحياء الله تعالى لها بالماء بعد موتها. وهذا الانطلاق يتمشّى مع قضيّة البعث بعد الموت، وهي المحور الّذى تدور حوله السّورة الكريمة. وها هي ذي الأرض الّتى أحياها الله تعالى تنبت من كلّ زوجٍ بهيج. ويختار السّياق الحبّ، وهو الغذاء الرّئيسيّ للإنسان. وإنّ اختيار الحبّ بالذّات ينبّه إلى أهمّ ما يحتاج إليه الإنسان من أنواع الثّمار، وإنّ النّصّ على عمليّة الأكل ينبّه إلى أهمّ المجالات الّتى يستهلك فيها الإنسان الحبّ. وهكذا يكون ثمّة تناغمٌ بين مجموعةٍ من الأساسيّات. إنّ ثمّة

الأرض الّتى يحسّ بها الإنسان أساساً أو آية المكان. وإنّ هذه الأرض كانت ميتةً فأحياها الله تعالى بالماء فأنبتت الحبّ الّذى جاء ذكره دون سواه من الثّمار، لأنّه الغذاء الأساسيّ للإنسان المخاطب. وكان النّصّ على عمليّة الأكل تنبيهاً على أهم أغراض الحصول على الحبوب.

وحينما كان الحديث عن ثمرات النخيل والأعناب من البُسْر والعنب، وهما بالقياس إلى الحبّ من قبيل الفاكهة من التّفكّه بمعنى التّلذّذ، والفاكهة تأتى الحاجة إليها بعد الحاجة إلى الحبوب، كان في السّياق ذكرٌ لمجموعةٍ من الأمور المتناغمة والمنسجمة معاً. إنّ الله سبحانه وتعالى جعل وصيّر في الأرض جنّاتٍ من نخيلٍ وأعناب. ومعروفٌ أنّ عمليّة الجعل بمعنى التّصيير تأتى بعد عمليّة الخلق والإيجاد من العدم. إنّ الله سبحانه وتعالى خلق أبانا آدم عليه السّلام من طين، وجعل زوجه حوّاء عليهما السّلام من ضلَعه عليه السّلام. ويتمشّى مع عمليّة الجعل للجنّات من نخيلٍ وأعناب عمليّة التّفجير للعيون، ثمرةً للماء النّازل أساساً من السّماء، فأحيا به عزّ وجلّ الأرض بعد موتها.

وينصّ السّياق على عمليّة الأكل من الثّمرات. وقد عرفنا أنّ هذه العمليّة أهمّ أغراض الإنسان من الحصول على ما يؤكل. كما ينصّ السّياق على عمليّة الأكل ممّا تعمل أيدى النّاس من حرثٍ وبذرٍ وسقي. ومعروفٌ أنّ مشاركة الإنسان في عمليّة الزّراعة تأتي متأخّرةً ومتخلّفةً وراء ما تقوم به العناية الإلهيّة. والمطلوب من الإنسان أن يكون شكوراً لمولاه جلّ وعلا.

ولمّا كان جنس الإنسان كفوراً بطبعه، وأقرب دليلٍ كفّار مكّة الّذين يتّجه إليهم الحديث في المقام الأوّل، كان ثمّة تنزيهٌ للذّات العليّة عن كلّ ما ألحقه الظّالمون به عزّ وجلّ. ويكون ثمّة نصٌّ على بعض مظاهر القدرة المطلقة للذّات العليّة ممّا له عَلاقةٌ بالأرض في المقام الأوّل. إنّ الله سبحانه وتعالى هوخالق الأزواج كلّها. وهذه الزّوجيّة أو الثّنائيّة حقيقةٌ علميّةٌ اكتشفها العلم أخيرا. وترتّب ثلاثةٌ من الأزواج بحسب قوّة الصّلة بالأرض. إنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى خلق كلّ زوجين ممّا تنبت الأرض من ذكرٍ وأنثى، ومن النّاس، وقد خلق الله

تعالى أبانا آدم عليه السّلام من طين، وفي نسله الّذى خلقه الله تعالى من ماء مهين كلّ أنواع المعادن الأرضيّة تنبيهاً إلى أصله الطّينيّ، ويأتى الذّكر أخيراً لما خلق الله تعالى ممّا يعلم هو وحده لا شريك له وممّا لا نعلم نحن أيّ شيءٍ عنه. وبذلك يتقدّم ذكر الّذى نعلم على الّذى لا نعلم.

وهكذا ترتّب المعاني والمباني في الطّريقة الّتى تخلِبُ اللّبّ وتأسِرُ القلب والنّفس والأذن. فسبحان الله تعالى القادر على كلّ شيء، الّذي لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

ثمّ يأتي الحديث عن آية الزّمان في أربع آيات كريمات، ويتناول أهمّ عناصر هذه الآية وهي اللّيل والنّهار والشّمس والقمر. والسّياق ينزّل اللّيل منزلة الأصل، والنّهار منزلة الفرع، أسوةً بالمواضع الأخرى في القرآن الكريم. وإنّ العلم يقول بما قال به القرآن الكريم. والسّياق ينزّل اللّيل منزلة الحيوان، والنّهار منزلة الجلد الّذى يسلخ من الحيوان، أي اللّيل، فإذا الخلائق في اللّيل البهيم مظلمون. ثمّ يأتي الحديث عن الشمس الآية المتعلّقة بالنّهار، وبسبب إيجابيّة النّهار تقدّمت الشّمس في الذكر، فهي تجرى ما شاء الله تعالى لها في خطٍّ واضح المعالم إلى أن يأذن الله تعالى بذهاب ضوئها. ذلك السّير المضبوط للشّمس تقدير العزيز في ملكه العليم بمصلحة خلقه الرّحيم بهم. والله تعالى قَدّر القمر ذا منازل، فهو ينزل في كلّ ليلة منزلاً من بين الثّمانية والعشرين منزلاً، ويستتر ليلتين إن كان الشّهر كاملاً، أو ليلةً واحدةً إن كان ناقصاً. إنّ الشّمس لا يصلح لها ولا يصحّ أن تدرك القمر. وقد أوحت جملة: ﴿تدرك﴾ ببعد الشّمس وبقرب القمر وسرعته بناءً على قربه. وإنّ اللّيل لا يصلح له ولا يصحّ أن يسبق النّهار. وقد أوحت لفظة: ﴿سابق﴾ بتلاصق اللّيل والنّهار، وقد دلّت جملة: ﴿نسلخ﴾ من قبل على ذلك. إنّ كلاً من اللّيل والنّهار والشّمس والقمر في فلكه الخاصّ به في جوّ السّماء يتحرك ويدور.

وإنّ جملة: ﴿يسبحون﴾ في نهاية الحديث عن آية الزّمان رشّحت للحديث عن آية الحمل فوق الماء.

إنّ من آيات الله تعالى الدّالّة على قدرته المطلقة جلّ وعلا أنّ الله سبحانه وتعالى حمل ذرّيّة المخاطبين في سفينة نوحٍ عليه السّلام المملوءة بنوحٍ عليه السّلام وأهله وبالمؤمنين وبالأزواج الّتى حملها نوحٌ عليه السّلام معه في السّفينة بإذن الله تعالى. وقد خلق الله تعالى للنّاس من مثل سفينة نوحٍ عليه السّلام ما يركبون عليه في الماء من سفنٍ ومراكب وقوارب وما إلى ذلك. كلّ ذلك من أجل أخذ العبرة والشّكر لله تعالى بإفراده عزّ وجلّ بالعبادة. وإنّ الله تعالى الّذى حمل المعنيّين بالحديث فوق الماء في السّفن قادرٌ على إغراقهم في الماء مع سفنهم. فإذا شاء الله تعالى إغراقهم فلا منقذ خارجيّاً ينقذهم، ولا مساعد داخليّاً وخارجيّاً يسعفهم. إنّ الّذى ينجّى النّاس من البحر ومن كلّ كرب رحمة الله تعالى الواسعة الّتى كتبها للّذين يتّقون ويؤمنون ويتّبعون الرّسول النّبيّ الأمّيّ، كما ينجّى الكافرين قضاء الله تعالى الّذى كتبه بأن يستوفي القوم أعمارهم لعلّهم يستفيدون من فترة الإمهال فيعودوا إلى جادّة الصّواب، فإذا جاء وقت موتهم لا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون.

وهكذا يكون من نصيب كلٍّ من الآيات الثّلاث أربع آيات كريمات ترضى كلّ عقلٍ بفُصوص حكمها، وتشبع كلّ نفسٍ بلذيذ نظمها.

(٣)

« جزاء الكافرين النّار، وجزاء المؤمنين الجنّة »

الآيات (٤٥ ـ ٧٠)

على الرّغم من كلّ الآيات البيّنات الدّالاّت على القدرةالمطلقة للذّات العليّة فإنّ كفّار مكّة لم يزدادوا إلاّ عناداً واستكباراً. وتبيّن آيات القسم بعض مظاهر عنادهم واستكبارهم وعاقبتهم السّيّئة كما تبيّن في المقابل ثواب المؤمنين. إنّهم إذا قيل لهم اتّقوا الله تعالى وخذوا حذركم من يوم القيامة بالإيمان به والعمل من أجله، ومن أعمالكم السّيّئة السّالفة بالتّوبة النّصوح والعمل الصّالح أعرضوا، تماماً

كما أعرضوا عن كلّ آيات الله تعالى البيّنات الّتى جاءتهم في هذا الكتاب العزيز. وإذا قيل لهم أنفقوا على فقراء المؤمنين ممّا رزقكم الله تعالى قالوا على سبيل الاستهزاء أنطعم من لو شاء الله أطعمه! إنّا لو فعلنا ذلك خالفنا مشيئة الله تعالى. ما أنتم بدعوتكم لنا أن نطعم المؤمنين إلاّ في ضلالٍ مبين. ويقولون على سبيل الاستهزاء كذلك: متى الوعد بيوم القيامة إن كنتم صادقين بأنّ ثمّة بعثاً وجزاءً.

ما ينتظر أولئك الكافرون ومن شاكلهم إلاّ صيحةً واحدةً يطلقها إسرافيل عليه السّلام تأخذهم وهم مشغولون بحطام الدّنيا فتميتهم. إنّهم لا يستطيعون أن يوصوا لأحدٍ بشيءٍ ولا إلى أهلهم يرجعون لأنّ الجميع ميّتون.

ونَفَخَ إسرافيل عليه السّلام النّفخة الثّانية في البوق فإذا هم من القبور يسرعون إلى ربّهم عزّ وجلّ. قالوا يا ويلنا من بعثنا من رقادنا. واستمرّوا قائلين: هذا ما وعد الرّحمن بالبعث والجزاء وصدق المرسلون في تبليغ الرّسالة. ما كانت العقوبة إلاّ صيحةً واحدةً فإذا هم أجمعون محضرون لدى الله تعالى. في ذلك اليوم لا تظلمُ نفسٌ شيئاً بحذف حسنةٍ أو إضافة سيّئة، ولا يجزى الجميع إلاّ ما كانوا يعملون. وهنالك في المقابل أصحاب الجنّة في النّعيم المقيم.

إنّ أصحاب الجنّة في شُغُلٍ عمّا فيه أهل النّار في ذلك اليوم وهم متنعّمون في كلّ أنواع النّعيم، هم وأزواجهم في ظلال الجنّة الممدودة على السّرر المزيّنة في القِباب المزركشة متّكئون. لهم في الجنّة الفاكهة الّتى يشتهون، وكلّ شيءٍ يطلبون. ويتوّج ذلك النّعيم المقيم بالسّلام قولاً من الرّبّ البرّ الرّحيم.

ويقال للمجرمين في ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود اعتزلوا المؤمنين يا أيّها المجرمون. ألم آمركم يا بنى آدم ألاّ تعبدوا الشّيطان البيّن العداوة لكم وبأن تعبدوني وحدي لا شريك لي فهذا هو الصّراط المستقيم والطّريق القويم. ولقد أضلّ الشّيطان الرّجيم خلقاً كثيراً. أعميت بصائركم فلم تكونوا تعقلون. هذه نار جهنم الّتى كنتم في الحياة الدّنيا توعدون. ذوقوا اليوم حرّها بسبب كفركم.

وفي يوم القيامة الّذى يحاول الكافرون فيه أن يكذبوا ويزعموا أنّهم لم

يكونوا مشركين يختم الله تعالى على أفـواههم وتعترف أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون من آثام. ولو شاء الله تعالى أن يطمس على أعينهم بالكلّيّة فتسابقوا الى الصّراط فكيف يبـصره أولئك العمي البـصائر والأبصار! ولو شـاء الله تعالى لمسخهم في الحياة الدّنيا حجارةً على الهيئـة الّتي هم فيها فما استطاعوا المشي قُدُماً إلى الأمـام ولا الرّجوع إلى الخلف. ودليـلاً على قدرة الله تعـالى المطلقة بـشأن الأمور الثّلاثة الّتى لمّا تقع يتحوّل السّياق إلى الحديث عن الواقع الفعليّ للمخاطبين كي يقيسوا الّـذى عرفوا على الّذي لمّا يعرفوا. إنّ من يعمّـره الله تعالى ينكّسه في الخلق ويردّه إلى أرذل العـمر حتّى لا يعـلم بعد علمٍ شيـئاً. هلاّ اسـتعـمل القوم عقولهم فآمنوا وعملوا صالحاً.

ويظلّ كفّار مكّة يهرفـون بما لا يعرفون فيزعمون أنّ مـحمّداً صلى الله علّيه وسلّم شاعرٌ وأنّ القرآن الكريم شعر. إنّ السّياق يقرّر أنّ ربّ العزّة والجلال ما علّم مـحـمّداً صلى الـله علّيـه وسلّم الشّـعر وأنّ الشّـعـر لا يليق به عليـه الصّـلاة والسّلام. إنّ الموحى به إلـيه صلى الله علّيه وسلّم مـا هو إلاّ ذكرٌ للعـالمين وقرآن مبين. لينذر عليه الصّلاة والسّلام من كان حيّاً بالإيمان فله جنّات النّعيم، ومن كان ميتاً بالكفر قد حقّ القول من الله تعالى عليه بأن يدخل في نار الجحيم.

(٤)

« إصرار الكافرين على الإعراض عن آيات الله تعالى وعقابهم، وتسلية النّبيّ صلى الله علّيه وسلّم »

الآيات (٧١-٧٦)

تجاه إصرار الكافرين على الإعراض عن آيات الله تعالى وعلى الكفر والصدّ عن سبيل الله تعالى يكون الاستـمرار في لفت الانتباه إلى آيةٍ من آيات الله تعالى

موصولةٍ بآية الحمل فوق الماء وهي آية الأنعام، الإبل والبقر والغنم.

وإذا كان الحمل في البحر على السّفينة، فإنّ الحمل في البّر على الجمل، سفينة الصّحراء.

فى أسلوب الاستفهام ينكر السّياق على كفار مكّة عماهم وعدم رؤيتهم بعين البصر والبصيرة أنّ الله سبحانه وتعالى خلق لهم بقدرته المطلقة الّتى بيدها ملكوت كلّ شيءٍ أنعاماً من إبلٍ وبقرٍ وغنمٍ فهم لها مالكون وفيها متصرّفون. لقد ذلّل الحق جلّ وعلا تلك الأنعام لهم كقافلة الجمال الّتى يقودها الطّفل الصّغير بحبلٍ في يده وفي عنق أوّلها. ومن تلك الأنعام ما يركبون كالإبل، وما يأكلون من لحوم الأنعام جميعها. ولهم فيها منافع من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها وما إلى ذلك، ولهم منها ما يشربون من لبن. إنّ واجبهم أن يشكروا لله تعالى تلك النّعم الّتى لا تُحْصَى بإفراده عزّ وجلّ بالعبادة ولكنّهم لم يفعلوا.

لقد فعل المشركون عكس المطلوب منهم والمأمول. إنّهم اتّخذوا من دون الله تعالى آلهةً زائفةً يعبدونها لعلّها تنصرهم حسب زعمهم وتقرّبهم إلى الله تعالى زلفى. إنهم لا يستطيعون نصر عابديهم، وهم الّذين أراد العابدون أن يكونوا لهم سنداً وعزاً، سيكونون عليهم ضداً وذلاً، وهم جميعاً محضرون لفصل الحساب.

فلا يحزنك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم قولهم إنّك لست مرسلاً وإنّه ليس ثمّة بعثٌ ولا نشور، حسابٌ ولا جزاء. إنّا نعلم ما يسرّون وما يعلنون من نوايا وأقوالٍ وأفعالٍ وسوف نجازيهم على كلّ ذلك، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ.

(٥)

« الله تعالى قادرٌ على إعادة خلق الإنسان والسّماوات والأرض »

الآيات (٧٧-٨٣)

حيث إنّ قضيّة البعث بعد الموت المحور الّذى تدور حوله سورة يس الكريمة

موصولةٍ بآية الحمل فوق الماء وهي آية الأنعام، الإبل والبقر والغنم.

وإذا كان الحمل في البحر على السّفينة، فإنّ الحمل في البّر على الجمل، سفينة الصّحراء.

فى أسلوب الاستفهام ينكر السّياق على كفار مكّة عماهم وعدم رؤيتهم بعين البصر والبصيرة أنّ الله سبحانه وتعالى خلق لهم بقدرته المطلقة الّتى بيدها ملكوت كلّ شيءٍ أنعاماً من إبلٍ وبقرٍ وغنمٍ فهم لها مالكون وفيها متصرّفون. لقد ذلّل الحق جلّ وعلا تلك الأنعام لهم كقافلة الجمال الّتى يقودها الطّفل الصّغير بحبلٍ في يده وفي عنق أوّلها. ومن تلك الأنعام ما يركبون كالإبل، وما يأكلون من لحوم الأنعام جميعها. ولهم فيها منافع من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها وما إلى ذلك، ولهم منها ما يشربون من لبن. إنّ واجبهم أن يشكروا لله تعالى تلك النّعم الّتى لا تُحْصَى بإفراده عزّ وجلّ بالعبادة ولكنّهم لم يفعلوا.

لقد فعل المشركون عكس المطلوب منهم والمأمول. إنّهم اتّخذوا من دون الله تعالى آلهةً زائفةً يعبدونها لعلّها تنصرهم حسب زعمهم وتقرّبهم إلى الله تعالى زلفى. إنهم لا يستطيعون نصر عابديهم، وهم الّذين أراد العابدون أن يكونوا لهم سنداً وعزّاً، سيكونون عليهم ضداً وذلاً، وهم جميعاً محضرون لفصل الحساب.

فلا يحزنك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم قولهم إنّك لست مرسلاً وإنّه ليس ثمّة بعثٌ ولا نشور، حسابٌ ولا جزاء. إنّا نعلم ما يسرّون وما يعلنون من نوايا وأقوالٍ وأفعالٍ وسوف نجازيهم على كلّ ذلك، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ.

(٥)

« الله تعالى قادرٌ على إعادة خلق الإنسان والسّماوات والأرض »

الآيات (٧٧-٨٣)

حيث إنّ قضيّة البعث بعد الموت المحور الّذى تدور حوله سورة يس الكريمة

العليم قادرٌ على خلق السّماوات والأرض ومن فيهما مرّة أخرى. إنّما أمره جلّ وعلا إذا أراد شيئاً أن يقول له : ﴿كن﴾ فيكون ذلك الشّيء بإذن الله تعالى. تنزيهاً لله تعالى ممّا ألحقه به الظّالمون، وفي مقدّمتهم كفّار مكّة، ممّا لا يليق بعظمته وعزّته جلّ وعلا. إنّه الله تعالى الّذى بيده وحده دون سواه ملك كلّ شيءٍ في هذا الوجود والتصرّف فيه، لا معقّب لحكمه، ولا رادّ لقضائه عزّ وجلّ. وإليه يرجع النّاس يوم القيامة.

وواضحٌ أنّ القول الّذى ختمت به السّورة الكريمة : ﴿وإليه ترجعون﴾ متعلّقٌ بقضيّة البعث، المحور الّذى تدور حوله السّورة الكريمة.

التّفسير

(١)
« هوان الكافرين على الله تعالى وعذابهم في الأولى والآخرة»
الآيات (٢٨ ـ ٣٢)

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾

وما أنزلنا : الواو استئنافيّة. ما : نافية(١).

وما كنّا منزلين : ما نافية(٢).

إن كانت : إن : حرف نفي (٣)بمعنى ما، أي ما كانت هلكتهم (٤)وعقوبتهم(٥).

تتحدّث الآيتان الكريمتان عن أصحاب القرية وقوم الرّجل المؤمن الّذى دعاهم إلى الإيمان واتّباع رسل الله تعالى الثلاثة إليهم فقتلوه رجماً بالحجارة فأدخله الله تعالى الجنّة وأكرمه فيها وغفر ذنبه فتمنّى لو أنّ قومه علموا بفضل الله تعالى عليه. لقد كان الرّجل المؤمن ناصحاً لقومه في الحياة الأولى وفي الآخرة.

يقرّر السّياق أنّ ربّ العزّة والجلال ما أنزل على قوم الرّجل المؤمن المقتول في سبيل الله تعالى من جند من السّماء، وما كان الله تعالى منزلاً ملائكةً لإهلاكه. إنّ القوم أهون شأناً. ما كانت العقوبة إلاّ صيحةً واحدةً لواحدٍ من جندنا هو جبريل عليه السّلام (٦)فإذا القوم هالكون كالنّار الّتى خمدت.

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٤.

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٤.

(٣) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٤.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣.

(٥) الجلالين والبحر المحيط ٧/ ٣٣٢.

(٦) البحر المحيط ٧/ ٣٣١.

يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾

يا حسرةً على العباد : يا حسرةً من العباد على أنفسها وتندّماً وتلهّفاً في استهزائهم برسل الله(١).

إنّ موقف كفّار مكّة من المصطفى صلّى الله عليه وسلّم، وموقف كفّار القرية من رسل الله تعالى الثّلاثة إليهم، يستحقّ من أجله أولئك الكافرون أن يُتَحَسَّر عليهم، وأن يثيروا في المخلصين عميق النّدم وكامن الشّجن، بسبب تفريطهم في جنب الله تعالى، وكفرهم وعنادهم وصدّهم عن سبيل الله تعالى. إنّه يحقّ لكلّ غيورٍ على دين الله تعالى أن ينادي الحسرة وأن يقول لها على سبيل المجاز: هذا أوانك فاحضرى. إنّ هؤلاء الأقوام ما يأتيهم من رسولٍ من الله تعالى إلاّ كانوا به مكذّبين وبه مستهزئين.

أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٣٢﴾

وإن كلٌّ لمّا جميعٌ لدينا مُحْضَرون : الواو : عاطفة. إن : حرف نفي. كلٌّ : مبتدأ مرفوع دالٌّ على عموم. والتّنوين بنيّة الإضافة. لمّا : للحصر بمعنى إلاّ. جميعٌ : خبر المبتدأ مرفوع بمعنى مجموعون. لدينا ظرف مبنيٌّ على السّكون في محلّ نصب متعلّق بجميع أو بمحضرون. محضرون خبر ثان(٢).

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٣.

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٥.

ألم ير كفّار مكّة بعيونهم الّتى في رءوسهم الأمم الكثيرة قبلهم الّتى أهلكها الله تعالى فذهبت كأمس الدّابر ومضت من غير رجعة!.

وما كلّ تلك الأمم الّتى أهلكناها إلاّ مجموعون لدينا يوم القيامة ومحضرون للحساب والجزاء. الثّواب في حقّ المؤمنين، العذاب في حقّ الكافرين.

وواضحٌ الحديث عن يوم القيامة. وقد عرفنا أنّ قضيّة البعث بعد الموت المحور الّذى تدور حوله السّورة الكريمة.

(٢)
« آيات المكان والزّمان والحَمْل فوق الماء »
الآيات (٣٣ ـ ٤٤)

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا
فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ
وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ
وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى
خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ
وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

هذه أربع آيات كريمات تتحدّث عن آية المكان، تتلوها أربع آيات كريمات أُخَر تتحدّث عن آية الزّمان، ثم أربع آيات كريمات أخيرات تتحدّث عن آية حمل الله تعالى النّاس فوق الماء. وبذلك تتحدّث أربع آيات كريمات عن كلٍّ من آيات المكان والزّمان والحمل فوق الماء. وهي آياتٌ كريمات ترضى كلَّ عقلٍ بجلال معانيها، وتشبع كلّ نفس، وتطرب كلّ أذن بجمال مبانيها. فسبحان الله تعالى القادر على كلّ شيء الّذى لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ ثمّة آيةً للنّاس دالّةً على القدرة المطلقة للذّات العليّة وبخاصّة المشركون، وهي آية الأرض الميتة الّتى يحييها الله تعالى بالماء النّازل من السّماء. وقد أخرج الله تعالى من هذه الأرض الّتى أحياها بالماء حَبّاً، هو عماد الغذاء للإنسان، فمنه يأكلون. ومعروفٌ أنّ أهمّ ما يحرص الإنسان عليه من النّبات الحبّ الّذى يأكله هو أساساً. وهكذا يكون ثمّة تناغمٌ بين الماء الّذى ينزل من السّماء أساساً، وهو مصدر كلّ ماء عذب على وجه الأرض، وبين الحبّ عماد كلّ غذاء، وبين الأكل وهو الهدف الأهمّ للإنسان من النّبات الّذى ينبت أساساً بيد

القدرة الإلهيّة حينما تسقيه السّماء، وكذلك النّبات الّذى للإنسان شيءٌ من جهدٍ فيه كالحرث والغرس والسّقي حتّى يؤتي بإذن الله تعالى أكله وينبت من كلّ زوجٍ بهيج.

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تنطلق من إحياء الله تعالى الأرض الميتة، وفي ذلك إيماءٌ إلى بعث الخلائق يوم القيامة، فثمّة انسجامٌ مع المحور الّذى تدور حوله السّورة الكريمة وهو البعث بعد الموت.

والآية الكريمة الثّانية تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى جعل في تلك الأرض الّتى أحياها بساتين من نخيلٍ وأعناب وفجّر فيها من العيون المتدفّقة بالماء العذب الزّلال. والمعروف أنّ النّخيل والأعناب أكرم النّبات عند العرب. وهما رمزٌ لسواهما من النّبات.

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تبدأ بجملة: ﴿وجعلنا﴾ بمعنى وصيّرنا، مِنَ الجَعْل والتّصيير. والمعروف أنّ الجعل مرحلةٌ تاليةٌ لعمليّة الخلق. فالله تعالى خلق أبانا آدم عليه السّلام على سبيل المثال، وجعل من آدم عليه السّلام أبينا، أمّنا حوّاء عليها السّلام. لقد كان الخلق من نصيب آدم عليه السّلام، والجعل من نصيب أمّنا حوّاء عليها السّلام. وإلى هذا المعنى أشار الحقّ جلّ وعلا في سورة الأعراف (١) قال تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلمّا تغشّاها حَمَلَتْ حَمْلاً خفيفاً فمرّت به. فلمّا أثقلت دعوا الله ربّهما لئن آتيتنا صالحاً لنكوننّ من الشّاكرين﴾.

إنّ الله سبحانه وتعالى جعل في الأرض جنّاتٍ من نخيلٍ وأعناب. وحينما نقارن بين الحبوب الّتى أشارت أليها الآية الكريمة السّابقة وبين ثمر النّخيل والأعناب، نتبيّن أنّ الحبوب هي الغذاء الرّئيسيّ، وأن ثمر النّخيل والأعناب أقرب إلى كونه فاكهة، من التّفكّه بمعنى التّلذّذ. والفاكهة تفترض وجود الغذاء الرّئيسيّ قبلها. وبذلك يكون ثمّة تناغمٌ في الآية الكريمة بين عمليّة الجعل وهي تاليةٌ لعمليّة الخلق، وبين عمليّة التّفكّه بثمر النّخيل والأعناب، وهي تاليةٌ لعمليّة أكل الغذاء

---

(١) الآية : ١٨٩.

الرّئيسيّ.

وكذلك تتناغم مع هاتين العمليّتين عمليّة تفجير الأرض عيونا. إنّ هذا الماء الّذى يتفجّر اليوم عيوناً، هو الماء الّذى نزل بالأمس من السّماء فأحيا الله تعالى به الأرض بعد موتها.

والآية الكريمة الثّالثة تنصّ على الحكمة من جعل الجنّات في الأرض الّتى أحياها الله تعالى بالماء، والّتى تمثّلت في مختلف الزّروع الّتى رُمِز لها بأكرم نبتتين لدى العرب، وهما النّخيل والأعناب. إنّ الحكمة هي الأكل من ثمر المذكور ومِنْ ثَمَ الّذى عملته أيديهم بعد حرثٍ وغرسٍ وسقي، آتى بفضل الله تعالى أُكُلَه، في هيئة ثمرات الزّروع المختلفة الأنواع والأشكال والرّوائح والطّعوم. إنّ على النّاس أن يشكروا لله تعالى هذه النعم العظيمة الّتى لا تُعدّ ولا تُحْصَى، ابتداءً من إحياء الله تعالى الأرض الميتة، وانتهاءً بالحبوب والثّمرات. إنّ الإنسان مطالبٌ بالعمل فقط، وكلّ شيءٍ قبل ذلك وبعد ذلك وفي أثناء ذلك لله تعالى الّذى لا إله إلاّ هو الحيّ القيوم. ولا نريد أن نسير مع لقمة الرّغيف في أفواهنا إلى الوراء حتّي ننتهى إلى إنزال الله تعالى الماء من المزن وإنشاء السّحب وإيجاد الماء من العدم. إنّ هذه السّلسلة لا تكاد تنقضى حلقاتها ولا تُحْصى. إنّما نريد أن نختصر الطّريق فنقول إنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى بيده وحده ملكوت كلّ شيء. وإنّ الإنسان المطالب بالعمل فقط لا يستطيع أن يعمل إلاّ بفضل الله تعالى ونعمته. إنّه جلّ وعلا هو الّذى خلق الإنسان في أحسن تقويم، وهو الّذى جعله قادراً على العمل، وهو الّذى أوجد أباه آدم عليه السّلام من العدم.

إنّ واجب النّاس أن يشكروا لله تعالى نعمه وآلاءه بإفراده عزّ وجلّ بالعبادة. ولا تكاد الحسرة تنقضى حينما يتبيّن أنّ أكثر النّاس عن آيات ربّهم عزّ وجلّ وعلا معرضون، وبه مشركون.

والآية الكريمة الرّابعة تنزّه الله تعالى من كلّ ما ألحقه به عزّ وجلّ العاقّون من النّاس الّذين كان منهم الكفران لنعم الله تعالى عليهم. إنّ الآية الكريمة تنزّه الله تعالى الّذى خلق الأزواج كلّها ممّا تنبت الأرض من ذكرٍ وأنثى من النّبات، ومن

النّاس الّذين خلقهم الله تعالى ذكراً وأنثى، وممّا لا نعلم من مخلوقات لله تعالى لا يأتى عليها الحصر. إنّ الثّنائيّة في كلّ نوعٍ تكاد تكون قاعدةً مضطردةً في كلّ ما خلق الله تعالى في هذا الكون. وإنّ العنصر الّذى يغلب عليه الانتماء ظاهراً لأحد الجنسين، فيه هو ذاته عنصر الجنس الآخر، وبذلك لا يكون ثمّة من واحدٍ سوى الله تعالى الأحد الصّمد الّذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

وممّا راعنا في الآية الكريمة ترتيب الأزواج الثّلاثة. لقد كان الابتداء بما تنبت الأرض، لأنّ هذه الآيات الكريمات الأربع تتحدّث عن المكان أو الأرض، فلزم الحديث ابتداءً عمّا تنبت الأرض. ثمّ كان الحديث عن الّذين يعنيهم السّياق في المقام الأوّل، وهم الكافرون عموماً، كفّار مكّة خصوصاً. إنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى خلق الزّوجين، الذّكر والأنثى، من نطفةٍ إذا تُمْنَى. ثمّ كان الحديث أخيراً عن الأزواج الّتى يعلمها الله تعالى وحده دون سواه، الّذى أعطى كلّ شيءٍ خلقه ثمّ هداه للدّور المنوط به في هذه الحياة.

وبعد الحديث عن آية المكان يأتى الحديث عن آية الزّمان. ونحن في غِنًى عن القول إنّ السّياق قدّم الحديث عن آية المكان على الحديث عن آية الزّمان، لأنّ علاقة الإنسان بالمكان ألصق وأسبق من علاقته بآية الزّمان.

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ
فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ
ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ
عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ
ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

نسلخ منه النّهار : ننزع عنه النّهار(١).

والشّمس تجرى لمستقرٍّ لها : والشّمس تجرى لمجرىً لـها(٢) لا تتجاوزه(٣) والمراد أنّها لا تزال تنتقل في مطالعها الصّيفيّة إلى مدّةٍ لا تزيد عليها، ثمّ تنتقل في مطالع الشّتاء إلى مدّةٍ لا تزيد عليها(٤).

والقمر قدّرناه منازل : الواو عاطفة. القمر مـفعولٌ به لفعلٍ محذوف يفسّره ما بعده، أي أنزلنا أو خلقنا(٥) أي قَدّرنا القمـر منازل كما فعلنا ذلك بالشّمس(٦) منازل : مفعولٌ به ثانٍ منصوب بتضمين قـدّرنا معنى صيّرنا، وذلك بحذف مضافٍ أي ذا منازل(٧).

حتّي عاد كالعرجون القديم : العُرْجون من العذْق، بكسر العين: من الموضع

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٥.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٥.

(٣) الجلالين.

(٤) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٦٣.

(٥) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٨.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٥.

(٧) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٨.

النّابت في النّخلة إلى موضع الشّماريخ(١) والشماريخ جمع الشُّمروخ، بضمّ الشّين، العِذْق من النخلة عليه البُسْر(٢) والقديم هو اليابس لأنّ ذلك من العِذْق لا يكاد يوجد إلاّ متقوّساً منحنياً إذا قَدُم ويَبِس. ولا يكاد أن يصاب مستوياً معتدلاً كأغصان سائر الأشجار وفروعها. فكذلك القمر إذا كان في آخر الشّهر قبل استسراره صار في انحنائه وتقوّسه نظير ذلك العرجون(٣) وفي رقّته وصفرته(٤) ومنازل القمر «ثمانيةٌ وعشرون منزلاً، ينزل القمر كل ليلة في واحد منها، لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه، على تقديرٍ مستوٍ لا يتفاوت، يسير فيها من ليلة المستهلّ إلى الثّامنة والعشرين. ثمّ يستتر ليلتين أو ليلةً إذا نقص الشّهر. وهذه المنازل هي مواقع النّجوم الّتى نَسَبَتْ إليها العرب الأنواء المستمطرة... فإذا كان في آخر منازله دقّ واستقوس»(٥).

وكلٌّ في فلكٍ يسبحون : وكلّ ما ذكرنا من الشّمس والقمر واللّيل والنّهار في فلك السّماء يجرون ويدورون(٦).

وآيةٌ أخرى دالّةٌ على القدرة المطلقة للذّات العلية تقدّمها الآية الكريمة الأولى للنّاس عموماً، كفّار مكّة خصوصاً، آية اللّيل والنّهار. إنّ الله سبحانه وتعالى يسلخ من على اللّيل وينزع النّهار فإذا النّاس مظلمون، وفي اللّيل البهيم داخلون. ولمّا كانت عمليّة السّلخ مرتبطةً عادةً بالبهيمة بعد الذّبح حينما يُسْلَخُ عنها جلدها، فذلك معناه أنّنا بصدد استعارة. وهذه الاستعارة تنزّل اللّيل منزلة الحيوان، وتنزّل النّهار منزلة جلد الحيوان، وبناءً على ذلك يكون اللّيل أو الظّلام هو الأصل، ويكون النّهار أو الضّياء هو الفرع أو الطّارئى. وإنّ تنزيل السّياق اللّيل منزلة الأصل

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٥ . .

(٢) انظر لسان العرب : «شمرخ».

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٥ .

(٤) انظر الجلالين.

(٥) الكشاف ٢/ ٥٨٨ .

(٦) انظر تفسير الطّبرى ٢٣/ ٧ وتفسير ابن كثير ٦/ ٥٦٥ .

أو الأساس يتمشّى مع ما يُفْهَم من القرآن الكريم في المواضع الأخرى من كون اللّيل هو الأصل، ويستحقّ التّقديم في الذّكر. ومن هذه المواضع قولُ الحقّ جلّ وعلا في سورة الفرقان(١) : ﴿وهو الّذى جعل اللّيل والنّهار خلْفَةً لمن أراد أن يذّكّر أو أراد شكورا﴾ وقولُ الحقّ جلّ وعلا في سورة الإسراء(٢) : ﴿وجعلنا اللّيل والنّهار آيتين فمحونا آية اللّيل وجعلنا آية النّهار مبصرةً لتبتغوا فضلاً من ربّكم ولتعلموا عدد السّنين والحساب. وكلَّ شيءٍ فصّلناه تفصيلا﴾.

والقرآن الكريم بتقديمه اللّيل على النّهار في الذّكر باعتبار اللّيل أصلاً ينبّه إلى هذه الحقيقة العلميّة من كون الظّلمة هي الأصل وكون الضّياء والنّور طارئين.

والآية الكريمة الثّانية تتحدّث عن آية الشّمس الّتى تجرى منذ خلقها الله تعالى في فلكٍ خاصٍّ بها لا تتجاوزه ولا تقصر عنه. وهكذا يكون للشّمس بإذن الله تعالى في كلّ يومٍ مطلع، ولها خطّ سيرٍ مقدّرٍ مضبوطٍ بيد القدرة الإلهيّة تسير فيه طوال السّنة، إلى أن يقضي الله تعالى فيها بغير ذلك. إنّ ذلك الفلك الّذى تسير فيه الشّمس حتّى قيام السّاعة تقدير الله تعالى العزيز في ملكه القهّار الفعّال لما يريد، العليم بمصلحة خلقه، الّذى خلق كلّ شيءٍ فقدّره تقديرا.

ويلاحظ أنّ الحديث هنا عن الشّمس المرتبطة بالنّهار.

والآية الكريمة الثّالثة تتحدّث عن القمر المرتبط باللّيل بأكثر من النّهار. ونحن في غنىً عن الحديث في حكمة تقديم الشّمس المرتبطة بالنهار على القمر المرتبط باللّيل بسبب إيجابيّة النّهار بفعل الشّمس بإذن الله تعالى، هذا إلى ضخامة الشّمس بالقياس إلى القمر حجماً ودوراً، ويكفى أن يقال إنّ القمر يستمدّ نوره من ضوء الشّمس الّذى يعكسه القمر كالمرآة فيجعل بإذن الله تعالى ضوء الشّمس النّابع منها نوراً. إنّ الشّمس نجمٌ مولّدٌ للطّاقة، وإنّ القمر كوكبٌ يعكس ضوء الشّمس نورا.

إنّ الله سبحانه وتعالى قدّر القمر وجعله ذا منازل ثمانيةٍ وعشرين، ينزل القمر في كلّ ليلةٍ منزلاً، ثمّ يستتر القمر ليلتين اثنتين إن كان الشّهر ثلاثين يوماً،

---

(١) الآية ٦٢.

(٢) الآية ١٢.

أو ليلةً واحدةً إن كان الشّهر تسعةً وعشرين يوماً.

ويبدأ القمر هلالاً أوّل الشّهر، ويأخذ في التّمام حتّى ليلة النّصف، ثمّ يأخذ في النّقصان تدريجاً كما أخذ في التّمام تدريجاً. وفي نهاية الشّهر يعود الهلال صغيراً كما بدأ، ولكنّه بسبب اتّجاهه إلى النقصان دائماً يبدو آخر الشّهر وكأنّه العُرْجون القديم، والعود من النّخلة، من منبته في النخلة إلى الشُّمروخ وهو الجزء من العِذْق الّذى عليه البُسْر.

إنّ العرجون ينفرد بين سائر الأغصان الأخرى بأنّه لا يكون مستقيماً مطلقاً، ولا تجده إلاّ منحنياً في هيئة الشّخص الكبير الفاني. وبالإضافة إلى انحناء العرجون كالهلال هو يشبه الهلال في الدّقّة والصُّفرة.

وهكذا يتحقّق في هلال آخر الشّهر الانحناء والدّقّة والصّفرة. وكلّها صفاتٌ توحى بها لفظة : ﴿القديم﴾ الّتى اتّصف بها العرجون الّذى قُطِع من النّخلة من وقتٍ بعيد.

والآية الكريمة الأخيرة تقرّر أنّ الشّمس لا ينبغى لها ولا يصحّ أن تدرك القمر. وكأنّ ثمّة سباقاً بين الشّمس والقمر. وحينما لا تدرك الشّمس القمر نُدْرِك بُعْدَ الشّمس كما ندرك قرب القمر. إنّ القمر بسبب قربه من الأرض وتبيّن سرعته تظهره الآية الكريمة سابقاً، وكأنّه مطارَدٌ من الشّمس.

كما تقرّر الآية الكريمة أنّ اللّيل وهو الأصل، لا يستطيع أن يسبق النّهار وهو الفرع، إنّ لكلٍّ منهما سلطانه على فترةٍ من الزّمن، ولا يستطيع أيٌّ منهما أن ينال من الآخر إلاّ بقَدَر وبإذنٍ من الله تعالى الّذى يكوّر اللّيل على النّهار ويكوّر النّهار على اللّيل، والّذى يولج اللّيل في النّهار فيطول النّهار على حساب اللّيل، ويولج النّهار في اللّيل فيطول اللّيل على حساب النّهار.

إنّ لكلٍّ من اللّيل والنّهار والشّمس والقمر فَلَكاً خاصّاً به في السّماء، يدور فيه ويسير، لا يتجاوزه بإذن الله تعالى الّذى بيده ملكوت كل شيءٍ ولا يقصر عنه.

وهكذا تتناول آية الزّمان أهمّ معالمه، اللّيل والنّهار والشّمس والقمر.

بقى علينا أن نقرّر أنّ أدقّ المراصد الفلكيّة البشريّة تحتاج دائماً بعد وقتٍ

يطول أو يقصر لأن تُضْبَط من جديد وأن تُرْبط بالشّمس والقمر، فسبحان الله تعالى الفعّال لما يريد. قال عزّ من قائل(١) : ﴿الشّمس والقمر بحُسبان﴾ أي يجريان بحسابٍ دقيقٍ مقدّرٍ مضبوط(٢).

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

ذرّيّتهم : الذّرّيّة أصلها الصّغار من الأولاد، وإن كان قد يقع على الصّغار والكبار معاً في التّعارف، ويُستَعْمَلُ للواحد والجمع، وأصله الجمع(٣).

في الفلك المشحون : في سفينة نوح عليه السّلام المملوءة الموقرة(٤).

فلا صريخ لهم : فلا مغيث لهم إذا نحن غرّقناهم يغيثهم فينجيهم من الغرق(٥).

ختمت الآية الكرية السّابقة بالإشارة إلى عمليّة السّباحة، وذلك في القول: ﴿وكلٌّ في فلك يسبحون﴾ وإنّما تتمّ السّباحة عادةً في الماء. وإنّ جملة: ﴿يسبحون﴾ رشّحت لتحوّل السّياق إلى آية حمل الحقّ جلّ وعلا الخلق فوق الماء.

وإنّ الحديث عن آية الحمل فوق الماء يجيء في أربع آياتٍ كريمات، وذلك

---

(١) سورة الرّحمن ٥.

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «حسب» ١/ ١٥٢.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «ذرو» ١/ ٢٣٦.

(٤) انظر تفسير الطّبرى ٢٣/ ٧.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٣/ ٧.

على غرار الحديث من ذي قبل عن كلٍّ من آية المكان وآية الزّمان.

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ من آيات الله تعالى الدّالّة على قدرته المطلقة عزّ وجلّ حمل النّاس فوق الماء على السّفن المملوءة بالنّاس المثقلة بالأحمال. ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تنصّ على حمل الله تعالى لذراري المخاطبين، من الأبناء والأحفاد. وكأنّ الآية الكريمة تثير في الآباء والأجداد عاطفة الأبوّة الجيّاشة. إن الله سبحانه وتعالى هو الّذى أنقذ ذراريهم من الانقراض، وذلك بإنقاذ الله تعالى نوحاً عليه السّلام ومن آمن معه في الفلك المشحون المملوء. وفي إنقاذ نوحٍ عليه السّلام والمؤمنين إنقاذٌ لذريّة نوحٍ عليه السّلام والمؤمنين. وتلك الذّرّيّة هم أجداد المخاطبين وآباؤهم. وفي إنقاذ المخاطبين إنقاذٌ لذريّتهم. فعلى المخاطبين، وفي مقدمتهم كفّار مكّة، أن يشكروا لله تعالى نعمه العظيمة عليهم بإفراده عزّ وجلّ بالعبادة.

والآية الكريمة الثّانية تقرّر المنّة الكبرى لله تعالى الّتى يطوّق بها عزّ وجلّ أعناق عباده، وذلك بحملهم في السّفن على الماء، تذكيراً دائماً لهم بنعمة حمل الله تعالى أباهم الثّاني نوحاً عليه السّلام والمؤمنين معه في السّفينة. إنّ الله سبحانه وتعالى قد خلق لهم من مثل ذلك الفلك وتلك السّفينة ما يركبونه في الماء ويمخرون به عباب الأنهار والبحار والمحيطات.

والآية الكريمة الثّالثة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى الّذى حمل النّاس فوق الماء إن يشأ يغرقهم في الماء ذاته مع السّفن الّتى تحملهم فلا مغيث خارجيّاً ينقذهم ممّا كتب الله تعالى عليهم من الغرق، ولا هم يُنْقَذون بمجهود ذاتيّ، أو عونٍ خارجيّ. إنّ ما قدّره الله تعالى من غرقٍ كائنٌ لا محالة.

والآية الكريمة الرّابعة تقرّر أنّ ثمّة سبباً واحداً ذا شقّين اثنين يُبْقى القوم على قيد الحياة بإذن الله تعالى. إنّهما رحمة الله تعالى الّتى وسعت كلّ شيءٍ والّتى تسع هؤلاء المشركين كي يستفيدوا من فترة الإمهال فيعودوا إلى بارئهم عزّ وجلّ، وقضاءُ الله تعالى الّذى حدّد للكافرين أجلاً هم بالغوه بإذن الله تعالى وموعداً محدّداً يغادرون فيه هذه الحياة الأولى.

إنّ على المشركين أن يستفيدوا من نعم الله تعالى الكثيرة عليهم بتوحيد الله

تعالى وإفراده عزّ وجلّ بالعبادة، وإلاّ كان الأخذ شديداً، والعذاب أليما.

ونستطيع أن نتبيّن في السّبب بشقّيه معنى العزّة والرّحمة اللّتين أومأت إليهما الآية الكريمة الخامسة من السّورة الكريمة، واللّتين قلنا إنّهما تصبغان السّورة الكريمة بلونيهما.

(٣)
« جزاء الكافرين النّار، وجزاء المؤمنين الجنة»
الآيات (٤٥ ـ ٧٠)

وَإِذَا

قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾
وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ
﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾

على الرّغم من كلّ هذه الآيات البيّنات والحجج الواضحات فإنّ كفّار مكّة مصرّون على كفرهم وعنادهم. ومن مظاهر إصرارهم على موقفهم أنّهم إذا قيل لهم آمنوا بالله تعالى وبرسوله صلّى الله عليه وسلّم، واتّقوا ما بين أيديكم وأمامكم من يوم القيامة والحساب فيه والجزاء، وما خَلْفكُمْ ممّا سبق أن قمتم به من سيىء الأعمال وقبيح الأفعال، لعلّكم ترحمون، فإنّ رحمة الله تعالى واسعة أعرضوا. وجواب الشّرط محذوفٌ لأنّه معروف فقد دلّ عليه إعراضهم المنصوص عليه في الآية الكريمة التّالية.

وما تأتى كفّار مكّة من آية من آيات ربّهم عزّ وجلّ في هذا الكتاب العزيز دالّة على وحدانية الله تعالى إلاّ كانوا عنها معرضين. وهكذا يُعْرِض كفّار مكّة عن كلّ دعوات الخير لهم بأن يؤمنوا ويتّقوا ويتوبوا ويعملوا صالحاً.

وكذلك يعرض كفّار مكّة عن دعوتهم لأن ينفقوا ممّا رزقهم الله تعالى، في أوجه البرّ بعامة، على فقراء المؤمنين بخاصّة. بل إنّهم ليستهزئون بهذه الدّعوة الخيّرة وبأصحابها وبالفقراء المؤمنين. إنّهم إذا قيل لهم أنفقوا ممّا رزقكم الله تعالى في أوجه البرّ وعلى المؤمنين بخاصّة أجابوا على سبيل السّخرية والاستهزاء: أنطعم من لو يشاء الله إطعامه لأطعمه! إنّا لو أطعمنا هؤلاء المحرومين نكون قد خالفنا مشيئة الله تعالى بحرمانهم! وحينما لا نطعم هؤلاء الّذين لم يطعمهم الله

تعالى نكون قد أكدّنا مشيئة الله تعالى بحرمانهم وبعدم إطعامهم!.

إنّكم حينما تدعوننا لإطعام فقراء المؤمنين ولمخالفة مشيئة الله تعالى الّتي قضت بفقرهم وبحرمانهم ما أنتم إلاّ في ضلالٍ مبين، وخروج واضحٍ عن الصّراط المستقيم.

وهكذا يجمع الكافرون بين الكفر وبين الإصرار على إيصاد كل الأبواب المفضية إلى البرّ والتقوى وفعل الخيرات.

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾

ما ينظرون : ما ينتظر هؤلاء المشركون الّذين يستعجلون بوعيد الله إيّاهم(١).

إلاّ صيحةً واحدة : هي نفخة إسرافيل الأولى(٢).

وهم يخصّمون : فيه إبدال. أصله يختصمون. قلبت التّاء صاداً بعد تسكينها ثمّ أدغمت الصّاد مع الصّاد وكسرت الخاء تخلّصاً من التقاء السّاكنين وهما الخاء والصّاد الأولى. وزنه يفتعلون(٣).

ويقول كفّار مكّة للمؤمنين على سبيل الاستهزاء واستعجال العذاب : متى هذا الوعد بالبعث إن كنتم صادقين في زعمكم بأنّ هناك بعثاً وجزاءً. ما ينتظر هؤلاء المشركون المستهزئون إلاّ صيحةً واحدةً بواسطة إسرافيل تأخذهم وهم

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٠.

(٢) الجلالين.

(٣) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ١٤.

يختصمون في بيعهم وشرائهم والسّعي وراء مصالحهم الشّخصيّة. وهذه الصّيحة تميتهم أجمعين بإذن الله تعالى. فلا يستطيع هؤلاء المشركون أن يوصوا بشيء لأنّهم جميعاً يصادفون المصير ذاته، ولا هُمْ إلى أهلهم وأحبابهم يرجعون لأنّهم في أماكنهم يموتون.

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

ونفخ في الصّور : هو قرن، النفخة الثّانية للبعث. وبين النّفختين أربعون سنة(١).

من الأجداث : القبور واحدها جَدَث(٢).

ينسلون : يخرجون سراعا. والنَّسلان الإسراع في المشي(٣).

من مرقدنا : المرقد استعارة عن مضجع الميّت. واحتمل أن يكون مصدراً، أي من رقادنا، وهو أجود. أو يكون مكاناً فيكون المفرد فيه يراد به الجمع أي من مراقدنا(٤).

---

(١) الجلالين وتفسير الطّبرى ٢٣/ ١١.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١١ وانظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «نسل» ٢/ ٦٣٤.

(٤) البحر المحيط ٧/ ٣٤١.

إن كانت إلاّ صيحة واحدة : ما كانت إلاّ صيحة واحدة(١) والضّمير في: ﴿كانت﴾ يعود على النّفخة الثّانية(٢).

بعد الحديث عن النّفخة الأولى الّتى تميت الخلائق بإذن الله تعالى يأتي الحديث عن النّفخة الثّانية الّتى تحيى الخلائق بإذن الله تعالى. وبين النّفختين أربعون سنة كما جاء في الحديث.

يقرّر السّياق في صيغة الزّمن الماضى المبنى للمفعول بأنّه قد نُفِخ في الصّور، وذلك لتحقّق وقوعه، فإذا منكرو البعث من القبور إلى ربّهم عزّ وجلّ يسرعون وللنداء يلبّون.

قال منكرو البعث وقد بُعِثوا فعلاً، ويلاحظ استعمال الزّمن الماضي دليلاً على تحقّق وقوع ذلك، قالوا يا ويلنا ويا هلاكنا لقد تحقّق البعث الّذى كنّا ننكره ولم نستعدّ له بالإيمان وعمل الصّالحات. من بعثنا من مرقدنا، ومن أيقظنا من نومنا، ومن أحيانا بعد موتنا؟ وكان الجوابُ الصّحيح منهم والإيمانُ بالبعث ولكن بعد فوات الأوان فلا ينفعهم إيمانهم: هذا ما وعد الرّحمن بإحيائنا بعد الموت، وَصَدَق المرسلون فيما أخبرونا به من أنّ بعد الموت بعثاً ونشوراً وحساباً وجزاءً، ثواباً أو عقابا.

ما كانت النّفخة الثّانية إلاّ صيحةً واحدةً أطلقها إسرافيل عليه السّلام فإذا النّاس مجموعون لدى الرّبّ البرّ الرّحيم الشّديد العقاب ومحضرون.

في ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود لا تُظْلَم نفسٌ واحدةٌ بحذف حسنة أو إضافة سيّئة، ولا ينالون إلاّ جزاء ما كانوا يعملون. إن خيراً فخير. وإن شراً فشرّ.

وواضحٌ حديث الآيات الكريمات المستفيض عن النّفختين، الأولى الّتى تميت الخلائق بإذن الله تعالى، والأخرى الّتى تحيى الخلائق، وعن ملابساتهما في حقّ منكرى البعث في المقام الأوّل.

---

(١) الجلالين.

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/١٦.

إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾

في شُغُل : عمّا فيه أهل النّار(١).

فاكهون : الفاكه والفكه المتنعّم والمتلذذ، ومنه الفاكهة لأنّها ممّا يتلذّذ به، وكذلك الفكاهة وهي المزاحة(٢).

في ظلال : ظلال جمع ظلّ. والظلّ يقال لكلّ موضعٍ لم تصل إليه الشّمس. ويقال ظلّ اللّيل وظلّ الشّمس(٣).

على الأرائك : الأرائك جمع أريكة وهي سريرٌ منجّدٌ مزيّنٌ في قبّةٍ أو بيت(٤).

متّكئون : توكّأ على الشّيء واتّكأ : تحمّل واعتمد فهو متّكىء. والمتّكىء في العربيّة كلّ من استوى قاعداً على وطاء متمكّناً. والعامّة لا تعرف المتّكىء إلاّ من مال في قعوده معتمداً على أحد شقّيه(٥).

ولهم ما يدّعون : ولهم فيها ما يتمنّون(٦).

سلامٌ قولاً : سلامٌ مبتدأ مرفوع. وجاز الابتداء به وهو نكرةٌ لأنّه دالٌّ على

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٣.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٩١.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «ظلل» ٢/ ٤٠٩.

(٤) انظر لسان العرب : «أرك».

(٥) انظر لسان العرب : «وكأ».

(٦) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٥.

عمـومٍ وهو المدح. والخبر مـحذوف تقديره عليكم. قـولاً : مفعـولٌ مطلق لفعلٍ محذوف منصوب والتقدير : يقال قولا(١).

بعد الحديث المستفيض عن ملابسات يوم القيامة والتّبيين بأنّ نفساً من النّفوس لا تُظْلم في ذلك اليوم بحذف حسنة أو إضافة سـيّئة تمّ الحديث أوّلاً عن أصحاب الجنّة والنّعيم المقيم وذلك في أربع آيات كريمات.

إنّ أصحاب الجنّة في ذلك اليوم المجموع له الـنّاس المشهود، الّذى يعاني فيه المشركـون أشدّ أنواع العذاب، هم في شُـغُلٍ بما يسعدهم عـمّا يقاسـيه أهل النّار، ومتنعّمون. إنهّم في النّعيم المقيم مع زوجاتهم في ظلال الجنّة الممدودة متّكئون على الفُرُش المنجّدة المزيّنة، في القباب المزركشة، أو في الهواء الطّلق. ولأصحاب الجنّة فاكهةٌ كثيرةٌ يأكلون منها ما يطلبون ويتخيّرون، ولهم فيها كلّ ما يشتهون ويتمنّون. ويتوّج كلّ ذلك النّعيم المقـيم والمُلْك الكبير بالسّلام عليـهم، قولاً من ربٍّ رحيم، وأمناً وسكينةً وطمأنـينةً من ربّهم عزّ وجلّ الّذى ربّاهم بنعمـه، وشملهم برحمـته الّتى وسـعت كلّ شيء. إنّ الرّبّ البـرّ الرّحيم يعـفـو عن المؤمنين ويتـركهم فـلا يعاقبهم، ويغـفر ذنوبهم ويستر سيّئـاتهم، ويرحمهم حينما يشملهم بفـضله الكبير وخيره العميم، سبحانه لا ربّ غيره، ولا معبود بحقٍّ سواه عزّ وجلّ.

---

(١) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٨/١١ والهامشين ١و٢.

وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ
أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا
تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ
هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ
أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ
﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾

وامتازوا اليوم أيّها المجرمون : أي انفردوا أيّها المجرمون عن المؤمنين، وتنحَّوْا عنهم ناحية، واعتزلوهم وانفصلوا عنهم. ويقال : تميّز القوم وامتازوا(١).

ألم أعهد إليكم يا بنى آدم : ألم أوصكم وآمركم يا بنى آدم(٢).

ألاّ تعبدوا الشّيطان : لا تطيعوه(٣).

جبلاً : خلقا(٤).

اصلوها اليوم : احترقوا بها اليوم وَرِدُوها(٥).

يؤمر المشركون المجرمون أن يعتزلوا المؤمنين يوم القيامة وأن يتنحّوا عنهم. ويقال لهم في أسلوب الاستفهام الإنكارى : ألم أوصكم يا بنى آدم وآمركم ألاّ تطيعوا الشّيطان الرّجيم البيّن العداوة لكم، وهو الّذى أبى أن يسجد لأبيكم آدم سجود تحيّة، وبذلك عصى الله تعالى، وأخرج أبويكم من الجنّة، وتعهّد بإغوائكم إلاّ عباد الله تعالى المخلصين. ألم آمركم يا بنى آدم بعبادتي وحدى لا شريك لى، وأقل لكم إنّ هذا هو الصّراط المستقيم المفضى إلى جنّات النّعيم. إنّ الشّيطان

(١) انظر لسان العرب : «ميز».
(٢) انظر لسان العرب : «عهد» وتفسير الطّبرى ١٦/٢٣.
(٣) الجلالين.
(٤) تفسير الطّبرى ١٦/٢٣.
(٥) تفسير الطّبرى ١٦/٢٣.

الرّجيم قد أضلّ منكم خلقاً كثيراً. أفلم تكونوا تعقلون ما أقول لكم، وهلاّ استعملتم عقولكم استعمالاً صحيحاً. بما أنّكم عطّلتم نعمة العقل لديكم وانسقتم وراء الشّيطان الرّجيم وهوى النّفس الأمّارة بالسّوء واتّجهتم إلى مهاوى الرّدى، فها هي ذى جهنّم الّتى كنتم توعدون إن كفرتم، فأصررتم على الكفر والصّدّ عن سبيل الله تعالى. ادخلوا نار جهنّم واحترقوا بها اليوم بسبب ما كنتم تكفرون في الحياة الدّنيا وتكذّبون رسلي وتجحدون آياتي البيّنات.

ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ
عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟
يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟
ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ
عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ
﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾

لطمسنا على أعينهم : أي أزلنا ضوءها وصورتها كما يُطْمس الأثر(١).

فاستبقوا الصّراط : الاستباق التّسابق(٢) الصّراط : منصوب على نزع الخافض أي إلى الصّراط(٣).

فأنّى يبصرون : فكيف يبصرون(٤) أنّى اسم استفهام في محلّ نصب ظرف

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «طمس» ٢/ ٤٠٠.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني «سبق» ١/ ٢٩٤.

(٣) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٢١.

(٤) انظر تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٨.

مكان متعلّق بمحذوف حال جاء بمعنى كيف، عامله يبصرون[1].

لمسخناهم : المسخ تشوبه الخَلْق والخُلُق وتحويلهما من صورةٍ إلى صورة[2].

على مكانتهم : على مكانهم[3].

ننكّسه في الخلق : نردّه إلى مثل حاله في الصِّبا من الهَرَم والكبر وذلك هو النَّكْس في الخلق، فيصير لا يعلم شيئاً بعد العلم الّذى كان يعلمه[4].

في يوم القيامة يختم الله تعالى على أفواه المشركين كيلا تستمرّ في التّفوّه بالكذب إلى الحدّ الّذى يقسمون معه بالله تعالى العظيم أنّهم صادقون في ادّعائهم. وإلى هذا الادّعاء أشار مثل قوله تعالى[5] : ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثمّ نقول للّذين أشركوا أين شركاؤكم الّذين كنتم تزعمون. ثمّ لم تكن فتنتهم إلاّ أن قالوا والله ربّنا ما كنّا مشركين. انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ إنّ المشركين الّذين كان السّؤال لهم عن معبوديهم الزّائفين بمثابة الابتلاء الشّديد لهم فرّوا إلى الحلف بالله تعالى كذباً أنّهم لم يكونوا مشركين في الحياة الدّنيا. وحينما يختم الحقّ جلّ وعلا على أفواه المشركين يكون البديل في اعتراف الأيدى وشهادة الأرجل بما كانوا يكسبون في الحياة الدّنيا من آثام.

ويلاحظ أنّ السّياق يجمع بين الاعتراف والشّهادة، وبذلك نكون أمام قضيّة تحقّقت لها أهم حيثيّات الحكم. إنّ المتّهم قد اعترف، وإنّ الشّهود العدول قد أدلوا بشهادتهم، فحقّ القول على الكافرين بدخول النّار. والسّياق ينسب الاعتراف للأيدى، والشّهادة للأرجل، لأنّ الاعتراف بتقدّم الشهادة أهمّيّة، واليد تتقدّم الرّجل. وهكذا ينسجم المتقدّم مع المتقدّم والمتأخّر مع المتأخّر.

وواضحٌ أنّ الحديث يتعلّق في هذه الآية الكريمة بيوم القيامة. ويصحّ أن يقال

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/ ٢١.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «مسخ» ٢/ ٦٠٥.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٨.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٣/ ١٨.

(٥) سورة الأنعام ٢٢-٢٤.

عن الآية الكريمة الأخرى الشّيء ذاته. إنّ الحقّ لو شاء لطمس على أعين أولئك المشركين يوم القيامة بالكلّيّة، فلا يكون ثمّة أعينٌ أصلاً، وذلك حينما يريدون أن يتسابقوا إلى الصّراط الممدود على جهنّم، فكيف يبصر أولئك المشركون الصّراط، ومن أيّ وجهٍ يرون الطّريق إلى الصّراط، وهم ليس لهم أعينٌ أصلاً!.

وكما كان ثمّة آيتان كريمتان تتعلّقان بالحياة الآخرة كان ثمّة آيتان كريمتان تتعلّقان بالحياة الأولى. إنّ الحقّ جلّ وعلا لو شاء لمسخ أولئك المشركين في الحياة الدّنيا حجارةً في الهيئة الّتى كانوا عليها، وبالتّالى لا يستطيعون أن يستمرّوا في السّير إلى الأمام ولا الرّجوع إلى الخلف.

ولمّا كانت هذه المعاني الّتى تضمّنتها الآيات الكريمات الثّلاث لم تتحقّق بإرادة الله تعالى، ما يتعلّق منها بيوم القيامة الّذى لا يؤمن به المشركون، وما يتعلّق بالحياة الأولى من مسخهم حجارة، فإنّ الآية الكريمة الرّابعة الّتى تتعلّق هي الأخرى بالحياة الأولى كسابقتها تقدّم الدّليل على القدرة المطلقة للذّات العليّة كي يقيس المشركون الّذين عرفوا من بلوغهم مرحلة الشّيخوخة والهرم بعد الشّباب والصّحة على الّذى لمّا يعرفوا ممّا نصّت عليه الآيات الكريمات الثّلاث السّابقات.

إنّ الّذى يطيل الله تعالى عمره وينسأ له في الأجل ينكّسه جلّ وعلا في الخلق فيكون ضعفٌ بعد قوّة، وشيخوخةٌ وهرم بعد شبابٍ وفتوّة، ومرضٌ بعد صحّة، وجهلٌ بعد علم، وهكذا. إنّ على المشركين في المقام الأوّل أن يستخدموا عقولهم الّتى امتنّ الله تعالى بها عليهم استعمالاً صحيحاً. إنّ اتّجاه الإنسان بتقدّمه في العمر إلى الضّعف والهَرَم والشّيخوخة واعتلال الصّحة، بعد القوّة والشّباب والفتوّة والصّحّة، دليلٌ على أنّ هذه الحياة ليست سوى طريقٍ مؤدٍ إلى الآخرة، فينبغي التزوّد في هذا الطّريق للآخرة.

ومن الآيات الكريمات الّتى أومأت إلى هذه المعاني قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الرّوم(١) : ﴿الله الّذى خلقكم من ضعفٍ ثمّ جعل من بعد ضعف قوّةً ثمّ جعل من بعد قوةٍ ضعفاً وشيبة. يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾ والمراد

(١) الآية ٥٤.

بالضّعف الأوّل ضعف الطّفولة والنّشأة. ثمّ كانت مرحلة قوّة الشّباب وبلوغ الأشدّ. ثمّ كانت مرحلة ضعف الاكتهال بعد الثّلاثين إلى الخمسين، والهَرَم وبلوغ أقصى العُمُر واشتعال الرّأس شيبا. ومن الآيات الكريمات الّتى بيّنت أنّ الله تعالى لم يخلقنا عبثاً قول الحقّ جلّ وعلا في سورة المؤمنون(١) : ﴿أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً وأنّكم إلينا لا تُرْجَعون. فتعالى الله الملك الحقّ لا إله إلاّ هو ربّ العرش الكريم﴾.

وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾

من الأخطاء الشّنيعة الّتى ارتكبها كفّار مكّة، استمراراً لشركهم وتكذيبهم للمصطفى صلّى الله عليه وسلّم، زعمُهُمْ أنّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم شاعرٌ، وأنّ القرآن الكريم ضربٌ من الشّعر. يزعم كفّار مكّة ذلك وهم أعلم النّاس بطبيعة الشّعر وأنّ القرآن الكريم ليس من الشّعر في شيء، ولكنّه الكفر والعناد والحرص على الصّدّ عن سبيل الله تعالى.

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ الحقّ جلّ وعلا ما علّم المصطفى صلّى الله عليه وسلّم قول الشّعر، وأنّ قول الشّعر ما يصحّ له صلّى الله عليه وسلّم ولا يليق به، لأنّه عليه الصّلاة والسّلام رسول الله وخاتم النّبيّين، عليهم جميعاً صلوات ربّ العالمين وسلامه. وحينما يكون صلّى الله عليه وسلّم رسول ربّ العالمين يكون ما أوحى الله تعالى إليه موعظةً وذكراً للعالمين، وقرآناً كريماً يهدى للطّريقة الّتى هي أقوم، مبيناً بجليل معناه وجميل مبناه أنّه ليس من كلام البشر في شيءٍ، وأنّه كلام ربّ العالمين.

وتقرّر الآية الكريمة الأخرى الحكمة من إنزال الحقّ جلّ وعلا القرآن الحكيم

---

(١) الآية ١١٥ و ١١٦.